الدكتور محيي الدين صابر باحث ومفكر من السودان.. شارك في حرب تحرير السودان من الاستعمار الإنكليزي. وتولى منصب وزير التربية والتعليم العالي هناك، ثم عمل في العديد من المنظمات الدولية والعربية وتولى مهام الأمين العام للمنظمة العربية، للتربية والثقافة والعلوم (الأليسكو)، وهو إلى جانب هذا شاعر وأديب، وعالم اجتماع، صدر له العديد من الكتب في مضمار علم الاجتماع. التقيناه في دمشق وحاورناه حول وضع الثقافة والمثقفين العرب اليوم.. وتطرق الحديث إلى الأزمة الثقافية في الوطن العربي، والسبل الكفيلة بتجاوزها.

المفكر والشاعر د. محيي الدين صابر:

ما دمنا نعبر بلغة واحدة فليس ثمة ما يخيف

حوار: وحيد تاجا - سورية

●● إذا حاولنا أن نرسم «بانوراما» لوضع الثقافة العربية اليوم، فكيف تراها وأنت المطل عليها من أكثر من ناحية ؟

● يمكن القول: إن هناك تقدماً كبيراً وهاماً في المجال الثقافي العربي سواء من حيث التنظيمات والمؤسسات العربية القطرية والقومية أو من حيث الإنتاج القومي لهذه الثقافة.

●● لا أظن أن الكثيرين يشاركونكم هذا

التفاؤل. ففي أي المجالات يبرز هذا التقدم المهم؟

• يمكن أن تأخذ التعليم مثلاً، فالتعليم ينتشر بصورة كبيرة في جميع البلاد العربية، وهي تعطي للتعليم في إطار عمليات التنمية مجالاً واسعاً. وإذا أخذنا واقع التعليم في الدول العربية نسبة إلى واقعه في البلاد النامية نجد أنها تتقدم بشكل ملحوظ. وكنا قد وضعنا استراتيجية واحدة للتعليم في الوطن العربي، وتقوم الدول العربية بتنفيذها في إطار خططها، وهذه العملية تتابع من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بشكل دائم، ورغم الاتجاهات السياسية المختلفة في الدول العربية فإن الثقافة والحمد لله، هي العمل الوحيد الذي لا يختلف عليه بدرجة كبيرة، وهو العمل الوحيد الذي يقوم على التكامل.

•• إذا كان الوضع الثقافي بهذا الشكل الإيجابي فلا بد أن ينعكس على المثقفين وعلى الأمة العربية بشكل عام، في حين أننا نشهد تراجعاً وأزمات في جميع فروع الثقافة تقريباً؟

• السؤال كان حول وضع الثقافة العربية بشكل عام، وهي كما قلت، في تطور مستمر وواضح، أما إذا أردنا أن ندخل في المجالات المختلفة للثقافة، الشعر، المسرح، الموسيقى، الفن التشكيلي، فهذا موضوع آخر.

هناك مجال واسع كي نحافظ على ثقافتنا وهويتنا، وعلى تراثنا، وفي الوقت نفسه هناك مجال أمامنا للمعاصرة أيضاً، قد تكون الرواية هنا متقدمة، وهناك الشعر متقدم، أو في بلد آخر يشهد الفن التشكيلي تطوراً، فالإبداع الفني هو إبداع فردي أي موهبة. وأية نهضة في أي مجال وفي أي قطر عربي لا بد أن تنعكس في البلاد العربية الأخرى، كذلك أي تخلف سوف يصيب الآخرين في المجالات نفسها.

•• ولكن هذا لايمنع من الحديث عن وجود أزمة ثقافية في الوطن العربي، ما هي برأيكم أبرز أعراض هذه الأزمة؟ أهي أزمة إبداع وإنتاج ثقافي أم أزمة تلق ووعي؟

• ابتداء، لا نستطيع فصل الأزمتين عن بعضهما البعض. وفي الواقع هناك نقاط كثيرة في السؤال الذي نجيب عنه الآن، فكلامنا عن الوعي يتطلب توضيحا لنوع الوعي الذي نتحدث عنه، ثم إننا حين نتكلم عن الوعي الثقافي فإننا نتكلم عن الحضور الاجتماعي والسياسي للأمة في مجموعها، وهو المعنى المتمثل في المؤسسة الثقافية، وفي مقدمة ذلك موضوع التعليم وتعميمه وإلزامه، بحيث تصبح الثقافة ضرورة من ضرورات الحياة، أي بعكس ما هو سائد الآن، حيث إن الثقافة ليست ضرورة من

ضروريات الحياة، فالناس يستطيعون أن يعيشوا دون ثقافة تذكر كما هي الحال في القرى والأرياف، ونحن نريد أن نصل إلى مجتمع تصبح الثقافة فيه ضرورة من الضرورات الحياتية، بما في ذلك علاقته بالعالم، وعلاقاته الداخلية، وقدرته على الإنتاج، كما هي الحال في المجتمعات المتقدمة.

ومن هذه الناحية فإن عدم الوعي الثقافي القائم مرتبط بتخلف المجتمع، فتخلف المجتمع من مختلف جوانبه أدى إلى أن لا تأخذ الثقافة دورها في المجتمع، وبناء على ذلك فإن الوعي بها قليل، معنى هذا أن هناك صلة كبيرة بين التخلف بصفة عامة وبين الوعي الثقافي بصفة خاصة.

وفيما يتصل بالنتاج الثقافي فهذا أيضا له جانبان: الجانب الكمي والجانب الكيفي. وفي واقع الأمر حين ننظر إلى الإنتاج الثقافي، الكتاب مثلا، كمصدر تقليدي للثقافة، نجد من خلال مراجعة الإحصائيات أن لكل فرد عربي نصيبا لا يذكر (كتاب واحد لكل سبعة أشخاص من العرب، وفي أوروبا مثلا هناك سبعة كتب للشخص الواحد) وهذا يعني نقصا كبيرا من ناحية الكم، وأسباب ذلك كثيرة: قلة الوعي، قلة الإقبال على الثقافة، وانتشار الأمية ...إلخ.

وفي الإنتاج من حيث الكيف نجد أننا في أزمة، فليس كل ما ينتج أصيلاً وحقيقياً، وكثير من الإنتاج هو مترجم ومشوه أو في موضوع واحد متكرر، فالعمل الثقافي قليل جدا، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى خلق الأزمة.

فإذا أخذنا بعد ذلك الجانب الآخر من سؤالك، وهو كيف نقدم هذا الإبداع ومن يرعاه، فإننا نرى وجوب تعميم التعليم، وإعطاء المتعلمين الفرص كي يبدعوا، وذلك برفع مستوى الإنسان العربي حتى تصبح الثقافة جزءا من حياته.

ولا بد من تشجيع المبدعين والاعتراف بدورهم الثقافي والاجتماعي والسياسي وذلك بتوفير الحرية لهم، وثمة ما يتعلق بسوق العمل الثقافي، فسوق الثقافة والمثقفين ضيقة عندنا، وفي البلاد المتقدمة يُسَوّق الإنتاج، فيعود على صاحبه بدخل مرتفع، أما عندنا فإن الدخل قليل وهو لا يوفر للمثقف عيشة محترمة. ولذلك نجد أن المتفرغين للثقافة عندنا قليلون جدا. ومعظمهم يحترفون أعمالا أخرى كي يستطيعوا العيش. ولا بد من إيجاد الدور الفاعل للحرية عبر تنظيم المثقفين أنفسهم في مؤسسات تمكنهم من التعاون وتتيح لهم أن يخصب إنتاجهم اجتماعيا وفكريا وماديا.

•• كيف يمكن الحديث عن ثقافة عربية واحدة في ظل التمزق الإقليمي الذي نحياه، والذي يسعى فيه كل طرف إلى إثبات وجوده المستقل وتجذير هذا الوجود الإقليمي أيضا؟

• السمات العديدة الموجودة داخل الثقافة العربية تعكس التنوع داخل الوحدة، وليست عمليات مستقلة، لأن الوعاء الثقافي العربي واحد مهما اختلفت الأشكال. فاللغة العربية واحدة، وهذا هو الأساس، وتأتي بعدها الهموم العربية والمشكلات التي يعاني منها الإنسان العربي، وتطلعات هذا الإنسان، وهذه كلها واحدة أيضا. كل التنوعات الإقليمية موجودة لسوء الحظ، مما يفاقم الأزمة، ونرجو ألا نصل لوقت تصبح فيه هذه التناقضات خصائص أساسية، والتي أخطرها ما يتمثل باللهجات التي تهدد اللغة العربية، وأعتقد أننا ما دمنا نعبر بلغة واحدة فليس ثمة ما يخيف وتظل الخطورة في النزوع إلى عمليات انفصالية، خصوصاً في موضوع محاولة جعل اللهجات المحلية لغات تنفصل فيها النتاجات

العربية المتنوعة عن الثقافة العربية الأم، وهذا هو الخطر الوحيد الذي يمكن لنا أن نلاحظه في الخطة القادمة، أما ما عدا ذلك في التنوعات فهي عوامل خصب، وروافد، وليست عوامل انفصال.

•• أشرت إلى مسألة الحفاظ على الهوية والتراث؟

• التراث معناه حياة الإنسان، فأنت لا تستطيع القول: إنني سأمحو الطفولة من حياتي أو مرحلة الشباب، فهذا غير ممكن لأنها جزء من حياتنا، فالتراث ينمو معنا، وعندما نجد شيئاً أفضل نستخدمه ولكننا نحتفظ بالتراث. ونحن نكتشف الأشياء الجديدة من الإبداعات القديمة، ولذلك فإن النظر إلى التراث أو إلى الثقافة على أنها تخلف وتأطر خطأ فاحش، ليس هناك فرق بين الحاضر والماضي أبداً، ومن هنا فإن الموضوع مهم جداً بالنسبة لنا نحن العرب، لأنه يتصل بوحدتنا الثقافية والقومية العربية القائمة على هذا التراث، ونحن مطالبون من ناحية قومية ومن ناحية حضارية بأن نحافظ على تراثنا، ومطالبون بالإبقاء على إبداعات الإنسان، لأنها إبداعات عامة وليست إبداعات قومية وقطرية. وقد استطاعت الأمة العربية والإسلامية في فترة من الفترات أن تبدع وأن تقدم العلم والمعرفة والغرب

■ النظر إلى التراث أو إلى الثقافة على أنها تخلف وتأطر خطأ فاحش.

لا ينكر هذا، لذلك فإن الحفاظ على التراث يساوي العمل والسعي للمعاصرة تماماً.

•• إذا انتقلنا إليك بصفتك شاعرا، فكيف ترى حال الشعر العربي اليوم••؟

• هناك تراجع في الشعر على مستوى العالم كله وليس في البلدان العربية فقط، فقد كان الشعر ديوان العرب أيام كانت الكتابة قليلة، فكان الشعر يأخذ مقام الكتابة التي تحفظ في الذاكرة. ولذلك كان واسع الانتشار. أضف إلى هذا ارتباط الشعر بالغناء ليس في اللغة العربية فقط وإنما في كل اللغات والغناء معناه الموسيقى •• والناس بحاجة إلى الغناء وإلى الموسيقى وإلى الكلمة الجميلة. ولكن واقع الأمر هو أن العالم وطبيعة الحضارة المعاصرة قد اختلفت وتيرتها، وتراجع ذلك الهدوء والانسجام لصالح التقنية والتكنولوجيا •• وتراجع معه الشعر لصالح الكتابة والكمبيوتر وعجلة الحياة التي لا تهدأ.

•• إشارتك إلى الموسيقى في الشعر، تدفعني لسؤالك عن رأيك بقصيدة النثر؟

• جميل ربطك بين الموسيقى في الشعر وبين قصيدة النثر، نحن نسمي الشعر شعراً عندما تكون فيه موسيقى، وقصيدة النثر تفتقر إلى هذه الموسيقى

وبالتالي فهي ليست شعراً، صحيح أنها كلام جميل ونثر جميل، ولكنها ليست من الشعر بشيء، لا داعي لأن نطلق عليها لقب قصيدة، فأنت لا تستطيع أن تكتب مقالة سياسية بالشعر.

•• ولكن شعراء النثر يعتبرونه تجديداً وحداثة؟

• التجديد لا يعني التغريب، كلنا متأثرون بالغرب، نلبس مثلهم ونأكل مثلهم، ونتحدث ونعرف لغاتهم، ولكننا لم نغير أنفسنا. وبالتالي لا بأس أن نتأثر بالشعر الأوروبي أو بالشعر الأفريقي أو الآسيوي ولكن بشكل يتماشى مع طبيعة بلادنا، أما أن نتأثر إلى درجة أن نترك الشعر كله ونكتب النثر ونسميه شعراً لأننا نقلد الآخرين فهذا غير صحيح، والتجديد ليس معناه أن ننتهي أو نختفي تماماً.

ولهذا نحن لا نقول الكلام نفسه عن قصيدة التفعيلة، لأن الأساس فيها هو الموسيقى، ولدينا شعراء كبار في هذا المجال.

•• وماذا عن مسألة الإغراق في الرمزية بالشعر؟

• الشعر كله رمز البلاغة العربية، وهي قائمة على الرموز والتشبيه. الخيال هو الشعر، والخيال هو الرمز، لكن الغموض والإمعان في الرمزية وابتعاد بعض الناس وعدم تقبلهم لهذه الرموز عائد إلى استعمال بعض الشعراء العرب للرموز الأجنبية، بمعنى قد نجد شاعراً فرنسياً يستعمل بعض الرموز الخاصة بالحضارة الرومانية أو الإغريقية، أي تلك الرموز التي تظهر في تاريخه القديم، ولكن عندما نستعمل نحن هذه الرموز فالقارئ العربي لا يعرف قصتها وبالتالي لا يفهم الشعر، فالمسألة ليست موضوع رموز وإنما نوع من التقليد غير المتفق عليه.

■ قصيدة النثر تفتقر إلى الموسيقى، صحيح أنها كلام جميل ونثر جميل، ولكنها ليست من الشعر بشيء، فلا داعي لأن نطلق عليها لقب قصيدة

•• هل يمكن للرواية العربية أن تأخذ مكان الشعر؟

• هذه المقولة بحاجة إلى بعض التدقيق. الرواية ليست ضد الشعر، فلماذا لا بد أن يكون هناك رواية أو شعر، فكل منهما وسيلة مختلفة للتعبير. الشعر يعبر بطريقته عن طبيعة معان وسياق وعلاقات معينة، والرواية تعبر بالنثر، وكلما ازداد عدد المتعلمين في العالم العربي ازداد الإقبال على الرواية، فالجميع يفهم النثر ولكن ليس بالضرورة أن يفهم الشعر، فالشعر له ناسه ومجتمعه وهذا لا يعني أن الرواية أفضل ■